JABATAN KEMAJUAN ISLAM MALAYSIA
DEPARTMENT OF ISLAMIC DEVELOPMENT MALAYSIA

Jurnal Hadhari 5 (2) (2013) 145-152
www.ukm.my/jhadhari

UNIVERSITI KEBANGSAAN MALAYSIA
The National University of Malaysia
INSTITUTE OF ISLAM HADHARI

ULASAN BUKU/*BOOK REVIEW*

المقدمة لابن خلدون، بيروت: دار القلم.، ١٩٨٣ م، ٥٩٢ صفحات

(Al-Muqaddimah oleh Ibn Khaldun. Bayrut: Dar al-Qalam, 1983, 592 hlm.)

DIULAS OLEH [1]HARYATI ADNI & [1,2] FARIZA MD SHAM
[1] Jabatan Pengajian Dakwah Dan Kepimpinan, Fakulti Pengajian Islam, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 UKM Bangi, Selangor, Malaysia.
[2] Institut Islam Hadhari, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 UKM Bangi, Selangor, Malaysia

ملخص الكتاب " المقدمة" لابن خلدون

والمقدمة كما هو معلوم، مدخل لعلم التاريخ بجميع فروعه وهي بالتالي مدخل إلى كتاب العبر الذي لا يخلو من مزايا خاصة على الرغم من أنه لا يزال مهملا بالمرة كموضوع للنقد بوصفه مصدرا تاريخيا. ولست أبالغ إذا قلت، أن كل من المؤرخ وعالم الاجتماع والمربي والمتخصص في الاقتصاد السياسي وحتى البيولوجي، سيجد فيه كثيرا من النظريات التي لا تخلق جدتها، فالرجل لم يكن يدري هو يؤلف هذا المرجع الرائع أنه لم يضع مؤلفه لمعاصريه، وإنما وضعه لمن بعده بقرون، ونحن نعيش اليوم في خضم النظريات التي عرضها بعمق وبصيرة ثاقبة. وتقع المقدمة كما قلت سابقا في ستة فصول رئيسية مصدرة بتمهيد مطول وكل من هذه الأقسام الستة يتفرع إلى فصول صغرى.

التمهيد:

يستهل ابن خلدون كتابه هذا بآرائه ونظرياته المهمة منها:إن فن التاريخ يوفقنا على أحوال الماضين من الملوك والأمم لاستخلاص العبر من سياستهم ومصائرهم، ولا يحكم التاريخ على الأخبار وحدها، فلا بد الحكم على العادات وقواعد السياسة وطبيعة العمران مع تحكيم النظر في كل ذلك.وثانيا الحمل على المسعودي الذي زعم أن موسى أحصى القادرين على حمل السلاح في التيه من إسرائيل و لم يثبت أنهم كانوا يتوفرون على ما يقاربه ثم حمل على من يبالغون من معاصريه في تقدير تعداد الجنود والنفقات وعد ذلك من ولوع النفس بالغرائب. وثالثا، و لم يقبل انتماء البربر بما فيهم من صنهاجة وكتامة إلى حمير ولكنه ذكر في العبر أن نسابه صنهاجة يعزون أنفسهم إلى حمير، ويتابعهم في ذلك ابن حزم ونفى في المقدمة أن يكن افريقيش الحميري قد وصل إلى افريقيا، إذ أن التبايعة لم

Corresponding author: Fariza Md Sham, Jabatan Pengajian Dakwah Dan Kepimpinan, Fakulti Pengajian Islam, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 UKM Bangi, Selangor, Malaysia, E-mail: farisham@ukm.edu.my
Received: 15 May 2012
Accepted: 20 January 2013
DOI: http://dx.doi.org/10.17576/JH-2013-0502-09

يتجاوزوا شبه الجزيرة العربية، فضلا عن الصعوبات المادية التي قد تعترضهم وقد نفى ما حكاه الطبري والزمختري وغيرهما من المفسرين عن ارم ذات العماد التي نسبت إلى هاد وأن مكانها عدد وقال : إن المفسرين ظنوا أن العماد هي الأساطين والمقصود بالعماد في نظره عماد الخيام. رابعا، إن نكبة البرامكة لم تكن بسبب العباسة بل لإستبدادهم. وخامسا إن الرشيد لم يكن مخمرا، إذ كان يحج سنة ويغزو أخرى، وهذا دليل على تقواه، ولكنه كان يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، و لم يكن يتخذ مظاهر الزينة والحلية في مواكبه، و لم يكن يحيى بن أكتم سكيرا، كما حمل لبن خلدون على من يقدحون في المهدي ابن تومرت.

وسادسا، إن الدول مثل الأمم والأشخاص يعتبرها التطور والهرم، وأهل كل دولة يأخذون عن عوائد من قبلهم حتى ينتهي الأمر إلى تباين تام بين الدول المتأخرة والمتقدمة. وسادسا، لا يرى فائدة كبيرة في الطريقة التي درج عليها المؤرخون المتأخرون في وزراء حجاب ومساعدي كل ملك، كما فعلوا في شأن بني أمية والعباسيين ما لم يكن هؤلاء الموظفون من ذوي الشهرة كالمنصور بن عامر. وبعد هذا التمهيد، تأتي الفصول الستة الرئيسية كما يلي:

الفصل الأول: العمران البشري على الجملة.

يستعرض فيه أهمية الاجتماع الإنساني وضرورته، ويتحدث في لمحة جغرافية عن الأقاليم السبعة، ومناخها وطبيعتها ثم يذكر أثر الهواء في التكوين الفيسيولجي والسلك الأخلاقي، وأثر البيئة الإقليمية في الحياة الاجتماعية ويقحم بعد هذا كلاما في شؤون الغيب والوحي والكهانة والرؤيا. ومن أهم نظرياته في هذا القسم:

أ- إن الإنسان مضطر إلى حياة اجتماعية، ويعبر عن ذلك بقول الحكماء" الإنسان مدني بالطبع فالمدنية والاجتماع والعمران عنده متقاربة ولكي يضمن الإنسان عيسه يضطر إلى البحث عن الأدوات الوسائل التي تسهله له، فيحتاج إلى التعاون، وبما أنه حبل على الظلم أيضا، فلا بد من السلطة تحدث توازنا بين أفراد المجتمع، هذه السلطة هي الملك الذي تمثله بعض المجموعات الحيوانية كالنحل والجراد.

ب- الطقس له أثر عظيم في عمران القسم الشمالي ونقصان القسم الجنوبي من الكرة الأرضية. هكذا فالبلاد المعتدلة أكثر سكانا من البلاد المفرطة في الحر في أرض أسود جلد أهلها وغلبت عليهم الخفة والطيش وكثرة الطرب. أما سكان البلاد الباردة فيغلب عليهم التفكير والاحتياط حتى ليدخروا قت سنتين والبلاد المجدبة أقدر على احتمال المجاعات والمتغذون بلحوم وألبان الحيوانات الضخمة تنشأ أجيالهم كذلك.

الفصل الثاني : العمران البدوي.

استعرض فيه المميزات الأخلاقية الاجتماعية لأهل البادية، وأسبقية حياة البداوة على الحضارة. كما ذكر ما يمتاز به البدو من شجاعة أهل الحضر، وتحدث عن نشأة العصبية واحتفاظ البدو بأنسابهم، وكيفية اختلاط الأنساب ودور العصبية القبلية في الحياة الاجتماعية السياسية وظروف انحطاطها وضعفها وأسباب انهيار الأمم ودور القبائل العربية في الميدان السياسي.

وهذا القسم من أهم أقسام المقدمة، حتى لا يكاد كل فصل من فصوله يمثل نظرية أساسية في ميدان علم الاجتماع، ومن أهم نظرياته هنا:

أ- لا بد من وجود حياة البادية بما تشمل من اشتغال بالفلاحة وتربية الماشية، إلى جانب حياة المدنية التي لا تتسع للزراعة.

ب- البدوي يتعيش بالضروري، والمدني يضيف إليه الكماليات ترفها وحياة غير المتحضر إما من الرعي أو من الزراعة، ولم يذكر الصيد.

ت- الاجتماع نوعان: بدوي وحضري، والأول سابق مادة وضرورة، وكلاهما ضروري ولكن البدوي أقرب إلى الخير لأنهم أهل فطرة.

ث- لا بد للدولة من عصبية (أي حزب يشد أزرها، وقد كانت العصبية يومئذ قبلية أو عائلية) وقلما تعدوا الدولة عظمة الملوك الأربعة الأولين.

ج- لا بد من عصبية أسرة معينة ضمن العصبية الكبرى لتتم الرئاسة لأهلها، وتنتقل من رئاسة القبلية إلى فوقها حتى تنتهي إلى الملك بالاستبداد أو المظاهرة.

ح- الترف والإفراط في الحضارة يخرب الدولة.

خ- من أهم مقومات الملك خدمة المصلحة العامة، ويعبر عن ذلك ب(التنافس في الخلال الحميدة) ويدخل في ذلك تجنب الدس والمكر، والمحافظة على العهد، وإكرام رجال العلم الدين، والعدل بين الرعية.

د- الأمم الغير المتمدنة يتسع ملكها أكثر من المتحضرة، ومثل هنا بالتبابعة الذين قال أنهم بلغوا العراق والمغرب والهند، مع أنه حمل بشدة على المسعودي في هذا الموضوع ونفى خروج التبابعة من شبه الجزيرة في بداية متقدمته كما مر.

ذ- المغلوب يقلد الغالب في زيه وأحواله.

الفصل الثالث: تطور الدول ونظمها السياسية والحرية وخرابها.

يتحدث فيه عن تأسيس الدولة ونموها وانتقالها من الضعف إلى القوة ثم إلى الضعف مرة أخرى ثم يتحدث عن اختصاصات رئيس الدولة خليفة وسلطانا، وعن نظام البيعة وولاية العهد والتنظيم المالي والعسكري وشارات الملك، وأخيرا انهيار الدولة ومراحله. من نظرياته في هذا الفصل:

أ- أن الدولة قد تستغني عن العصبية القبلية بتقادو العهد وانقياد الرعية، كما حدث في عهد العباسين إذا انتهت العصبية العربية منذ عهد المعتصم، ولكنهم تحولوا إلى عصبية الترك والفرس، على أن فقدان العصبية الأساسية أدى إلى خراب الدولة.

ب- الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية.

ج- الدولة يتسع نطاقها وملكها على أساس كثرة المتعصبين لها (أي عصبيتها)، وكلما كثرت القبائل والأوطان في بلد صعب استحكام الدولة فإن الشام سهل انقياده على العرب إذ هم أهل حضارة، وهم عرب على الأكثر، وتعذر لأمد طويل خضوع البربر لكثرت قبائلهم وعصبياهم وبدواهم، وتعذر على هؤلاء إقامة دولة واحدة لأمد طويل.

د- الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص.

ه- إذا خشيت الدولة على نفسها اصطنعت الموالي الغرباء، ثم ينقلبون عليها.

و- ما قيل عن عظم أجسام الدولة الماضية كعاد وثمود من قبيل الأساطير، فمآثر الدول في الحضارة على قدر قوهما المادية وقابليتها للمدينة.

الفصل الرابع: عمران المدن والأمصار.

تحدث عن استقرار الدولة بالأمصار، وعن بناء المدن وقلة المباني في الدول الإسلامية وأسواقها وأسعارها وتطور حضارهما وخرابها. ومن استنتاجه في هذا الباب:

أ- إن الدولة في طور تأسيسها تضطر إلى الإستلاء على الأمصار لأمرين : احدهما لتسد نقصا في الحضارة والعمران، والثاني، لكي تحتمي بها عند الحاجة.

ب- إن الهياكل الأبنية العظيمة لا تستقل ببنائها ملك واحد، وقد لا تستقل الدولة الواحدة ببنائها، مثل بأهرام مصر آثار الفرس ورباط الفتح وغير ذلك.

ت- إن المباني في الأمة الإسلامية قليلة، لأن العرب عريقون ي البداوة، وعلى يدهم قامت الدولة، ولكن عصبيتهم لم تظل آلاف السنين ولا مآهما، فلم يبق الحكم بأيديهم أيام الأمويين والعباسيين إلا عقودا، وليس كذلك أمم الفرس والرومان.

ث- إذا كثر سكان مدينة، رخصت أسعار قوتها الضروري وغلا سعر سلعها الكمالية، إن قل ساكنوها فبالعكس.

الفصل الخامس: وجوه المعاش والصنائع.

تحدث فيه عن حاجة السكان إلى ابتغاء الرزق والسعي فيه وأنواع المعاش من تجارة فلاحة وصناعة ومهن، عن تطور الصنائع ومختلف شعبها. من استنتاجاته هنا:

أ- إن الوظائف الصغرى المرهونة بظروف الترف لا تعتبر معاشا طبيعيا.

ب- أن رجال الدين تعظم ثروتهم في الغالب كرجال القضاء والفتيا والإمامة الخطابة، ولكنه هنا لم يتعرض للرشوة، وبما أن الأمر يتعلق بوظائف اسرمية فهو لم يتحدث عن رجال الكنيسة، وقد كانوا أغنى الناس في عصره.

ج- كلما بعد بلد وتعذرت المواصلات إليه كلما غلت السلع المجلوبة منه.

د- إذا كثر العرض رخصت السلع إلى حد الإفراط فيتضرر المحترفون الصغار. وتكسد البضائع فيتوقف هؤلاء عن العمل، كما أن الغلاء المفرط مضر كذلك بالطبقة الشعبية، والمواد الضرورية خصوصا الحبوب الزراعية الأساسية يحمد فيها الرخص.

ه- الصنائع منها ما هو مركب، ويحتاج فيه للكماليات، وما هو بسيط يحتاج فيه للضروريات وهو أسبق، أمل تطور الصنائع فيحتاج فيه إلى زمن وأجيال ولا يتم إتقانها إلا بمقدار الطلب عليها، وقد رسخت الصنائع في الأمم التي مضى على تطورها في الحضارة عدة أجيال كبني إسرائيل والصين والهند واليونان، وليس كذلك العرب.

و- من حصلت لها ملكة في صناعة فقل أن يجيد غيرها.

الفصل السادس : طرق التعليم وأصناف العلوم.

هذا أطول أقسام المقدمة، إذ يأخذ أزيد من ثلثها، وفيه يتحدث عن طرق التعليم المتعارفة في عصره، ويدلي بآرائه، ويتحدث عن تطور مختلف أنواع العلوم من دينية وطبيعية ورياضية وأدبية. ومن نظرياته في التعليم:

أ- ضرورة مراعاة عقل المتعلم.

ب- التدرج في تلقين التعليم على ثلاث مراحل.

ت- يحسن الاشتغال بالعلم واحدا واحدا.

ث- الشدة على المتعلمين مضرة بهم.

ج- الرحلة في طلب العلم مفيدة.

ح- لا يعاق المتعلم بكثرة التآليف كما أن كثرة المختصرات مضرة.

خ- التعليم من جملة الصنائع.

ومن آرائه عن العلم والعلماء:

أ- العلوم تنمو حيث تنمو الحضارة.

ب- حملة العلم في الإسلام أكثرهم عجم.

ت- العلماء من أبعد الناس عن السياسة.

وقام ابن خلدون بتصنيف العلوم إلى قسمين. صنف طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكرة وهو ما يشبه العلوم الفلسفية والناتجة عن الحكمة واعمال العقل. والصنف الثاني هو النقلي الذي يتم اخذه ممن توصل إليه من قبل، ويكون الاعتماد بشكل كبير فيه على الأخذ وليس العقل.

و لم يترك في هذا القسم علما معروفا في زمنه لم يتحدث عنه، كالتفسير والفرائض والفقه والكلام والتصوف والجبر والهندسة والهيئة والمنطق والسحر والكيمياء والروحيات والتنجيم والفلسفة والنحو والأدب واللغة والبيان والموسيقيز. ومن أهم النظريات الثورية التي لم يبلغ إلى علمنا أن المعتنين بمشاكل العربية قد انتبهوا إليها، والتي سبق إليها هذا العالم الفذ، دعوته إلى إصلاح اللغة العربية عن طريق تعويض حركات الإعراب أو تيسيرها وفي ذلك يقول بالحرف في الفصل الخاص ب (لأن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير) ص.٥١١

لعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي واستقربنا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغة وملكاتها مجانا، ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة، تغيرت عند مضر كثير منم الموضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. كما ورد في هذا الباب، شرح مفصل لتطور اللسان العربي الذي لا يهم سوى المختصين بعلوم اللغة وتطور اللسان العربي. لذلك على من كان مهتما في هذه المباحث فتح مقدمة ابن خلدون والقراءة في تاريخ هذا الشأن.

الختام والتعقيب

هذا عرض مبسط لمقدمة لابن خلدون، وتكاد تكون كل من نظريات هذا الفيلسوف الاجتماعي تشكل موضوعا قائما بذاته، على أن بعض هذه النظريات قابل للمناقشة والرد والبعض الآخر لم يعد

صالحا، والباقي هو الأكثر يكتسي صبغة الاستمرار وتلك قاعدة العلم الرئيسية. يتضح لنا أن المقدمة لابن خلدون لها ميزات خاصة من بينها:

الأولى: أن ابن خلدون استطاع أن يكتب المقدمة على نحو لا نظير له في دراسة العمران، كما سمى جهده المبذول في قراءة التاريخ البشري.

الثانية: أن ابن خلدون قدّم لنا تفسيرات فلسفية في إعادته تحليل المجتمع البشري في ضوء الحضارة: نشوئها، ونموها، وازدهارها، ثم انحلالها، سقوطها واندثارها.

الثالثة: لم يكن ابن خلدون في تفسيراته، ولا من جهة تأويلاته أحيانا، يمكن أن يدخل ميدان الفلسفة احترافا، بل استفاد منها في تشكيل تصورات تنظم قوانين الإنسانية.

وابن خلدون هو المفكر العربي الأخير الذي أنتج كتابا يمكننا أن نصفه بأنه كتاب فكري مبدع. كتاب فكري يشخّص فيه بعض الأسباب المتصلة بموضوعنا اليوم، وكان قد أدركها بتحليلاته في (المقدمة). مثلا عندما تكلم عن العصبية، حلّل المجتمعات تحليلا يكاد يكون في ذاك الوقت أنثروبولوجيًا. تحليل العصبية هو تحليل القوة العاملة المرتبطة بالنسب، أي بما ينتج جميع العلاقات الاجتماعية التي تكيّف المسيرة إلى السلطة وتكيّف أيضا ما نسمّيه المشروعية للسلطة

هذا تحليل مهم جدا، وإلى يومنا هذا لم ننتبه إلى هذا البُعد الانثروبولوجي لتحليل القوةالعاملة، والعاملة من داخل ومن تحت البنية التي نراها. (تحت) ما نصفه عندما نقول تحالفت هذه القبيلة مع تلك القبلية. وأصبح من المسلم به تقريبا في مشارق الأرض ومغاربها، أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع أو علم العمران البشري كما يسميه. وقد تفطن هو نفسه لهذه الحقيقة عندما قال في مقدمته التي خصصها في الواقع لهذا العلم الجديد: ... وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا، ويبدو واضحا ان اكتشاف ابن خلدون لهذا العلم قاده اليه منهجه التاريخي العلمي الذي ينطلق من أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة وأنها ترتبط ببعضها ارتباط العلة بالمعلول، فكل ظاهرة لها سبب وهي في ذات الوقت سبب للظاهرة التي تليها. لذلك كان مفهوم العمران البشري عنده يشمل كل الظواهر سواء كانت سكانية أو ديمغرافية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية أو ثقافية. فهو يقول في ذلك: ":فهو خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن الكسب والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال".

وهنا يلامس أيضا نظرية النشوء والارتقاء لدى داروين وان لم يغص فيها. ثم أخذ في تفصيل كل تلك الظواهر مبينا أسبابها وتنائجها، مبتدئا بأن بإيضاح أن الإنسان لا يستطيع العيش بمعزل عن أبناء جنسه حيث:" ان الاجتماع الإنساني ضروري فالإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية..." وهو معنى العمران.